# النتاج الجديد

## ـ فصول لـم تتم ـ

### مجموعة شعر لحبيب صادق

منشورات دار الآداب ـ بيروت

***

١ ـ عذب جرسه ، شهي ايقاعه ، تفتني افكاره بمدد من مرئيات تبدو لجميع الناس ، ولا تراها الاعين ، وهي عين اديب ترى في الاشياء اكثر مما يرى عادة ، وتخرج منها ، مع اللمح الغني ، بما تجسده به من قوالب وأبنية .

٢ ـ لولم أعرفه لرأيته ، في مرآته من فصوله هذه ، شاحبا معروقا يزيده النحول قوة مضاء ، وصدق عزيمة ، وبعد همة ،وعلو مطمح ، وكبرياء عزوف ، وما شئت من تحديات عناد مستفز ـ بفتح الفاء ـ يغري بها مكافح ، ويغري في نداء الى المعركة جسور .

اذا كان النقد يرفض سذاجة التزيد الانشائي ، بتشديده على التحديد والموضوعية ، فاني عنيت كل لفظة في خطوتي المنهجيتين هاتين ، وقد اردت بالاولى التعبير عن اصالة فنية في ذات العمل المطروح تبدو في تركيبه وعلاقاته وانفعالاته ، واردت بالثانية التعبير عن صدق الفن بهذا العمل مربوطا بصاحبه في اندماج يديره فيه دورة دموية ، ويعكس ملامحه ومزاياه متحركة حية .

وقبل ان تشكل اصالة « حبيب » في اطار من شروط الابداع وظروفه كان لها اصل في استعداده لا يدخلها في تركيبه الخاص وحده ، بل يدخلها في تركيب بيته كله ، ويسوق اليه منها ارثا معتق العراقة . اربعة من اخوته على الاقل شعراء ، وابوه شاعر، وجده شاعر ، وبيته يحمل راية الشعر منذ اجيال ، غير منازع في الجنوب على الاقل . وليس هذا انفاقا لا معنى له فيما يبدو انه نبل ليس في متناول الصراعات الطبقية ، فان لم ينمه التطور لم يمس جوهره بتغيير الا التغيير الماثل في عطاء يثبت امتداده .

وقد هزم التطور الارث في نتاج حبيب كما قد يبدو : نعم وفي مقارنة بسيطة يظهر ان شعره خالف شعر بيته ، شكلا ومحتوى، بكثير من خصائص القول واغراضه ومذاهبه وتراكيبه ، ولكن هذا التغيير الذي لا بد منه لم يتناول ما كان به حبيب شاعرا . لم يتناول موهبته في نوعها المدفوع اليه بالارث . ليس مهما في هذا الصدد ان يختار العمود الشعري التقليدي لانتاجه ـ وقد اختاره احيانا ـ او يتحرر منه .

وليس مهما ان يقول بوحدة القصيدة ، او يقول بوحدة الموضوع، ليس مهما ان يكون ملتزما او ان يكون حرا ، ليس مهما ان يقدم ضميرا على مرجعه المتقدم في الرتبة ، او يؤخره ، المهم فقط ملامح موهبته في قدرتها على الخلق والتشكيل خلال تفاعلها بالمشاهد والكلمات ، وطاقتها على الغوص والتحليق خلال المخاض ، وفي هذا المدار تستقر موهبته الارث مركز ثبات لا يتغير ، ولا يتغير ما حولها الا ليعقب اصالة جديدة ، هي اصالة الذات في مرحلة جديدة الدوافع والمقاييس والاعتبارات ، ولو قدر للمغفور له ابي حبيب ان يعود عبر مرحلة ابنه وظروفه ، لاعطى عطاءه ، في اكبر الظن وانتج نتاجه .

والصدق يظهر وجها آخر من اصالته ، ان لم يكن وجهها الانقى ،فانت من « فصوله » ازاء عضلات واوردة وشرايين واوداج والوان انفعالات ، اكثر مما انت منها ازاء حروف وتراكيب ومقاطع وانغام، في وضع يكشف عن المأساة في هول من عانى بلاءها المكثر ،بضعف مستسلم ، او ببسالة مستضعفة ، لم يشهد حبيب معركة حزيران المشومة في الجبهة ، ولكنه عاش الضياع العربي الكبير من نتائج مؤامراتها الخبيثة ، ووقع منه في اسر من نفسه واعصابه يذيقه مثل عض القيود في مستنقعات السجون .

ويشد عليه من المشكلة الضخمة بما جوبته « الفصول » من اصداء وما عكسته من معطيات ، ولا يكون الصدق في شيء انبض منه في فن اصيل تصنعه المكابدة والمعاناة .

يبدو ـ ارتقاء بالصدق والاصالة ـ ان الفصول من فن مدروس ـ متلاحم يعرف دوره الحضاري في دورة الصراع ، ومن هنا هي لاتعنى بمشكلة الشرق الاوسط خاصة ، لان هذه فرع ، والمشكلة الاساس تكمن في « الواقع العربي » المنوم . العرب في منهج الفصول الملحوظ ، لم يضيعوا بالغزو الاسرائيلي ، وانما كانوا قبله في حالة ضياع تغري بالغزو ... قبل حزيران المشئوم كان الوجود العربي يفقد مقوماته حيث لا تدنس حرم استقلاله سنابك احتلال ، ولا تخرق صون سيادته حراب عدوان ، ولا تستبد بعلاقات ارضه مغامرة استيطان . كان قبل حزيران يخضع ، ويخضع أوطاننا الى تفاهات تتخذ من فلسفات الافقار والتجهيل واحتكار الفرص ـ رغم انقضاء وقتها ـ ما يجعل الطغيان الداخلي ابغض من العدوان الخارجي واوجع، ويزيد فينطوي على ما لا يمكن فصله عن الهزيمة النكراء بحال .

من اجل هذا اقامت « الفصول » موقعها من المشكلة على قاعدة من الربط الجلي بين الوجود العربي الشبح ، وبين خدعة حزيران الماكرة ، فجاء موقفا عاما يواجه المشكلة في شبكة من مظاهرها ومجاريها المختلفة ، ويبرز ما تناوله منها في توهيج وتهييج ، على ان « حزيرانيات » الفصول تمتاز باشد جرعات المحنة مرارة وتضيف فتقدم بحبيب فدائيا ينقلد سلاحا يقود السلاح .

ولعل اخص ما يكون مثير الفصول الوطني اكتفاء « الواقع العربي » بـ « غريزة الغول » في دفع الخطوب وبلوغ الاماني ، على نحو يصور وجها منه مثلنا القديم « أشبعتهم سبا واودوا بالابل » كما يصور احد وجوهه قول الاول :

الهى بني تغلب عن كل مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

من قول اذا رفع صوت « النقد الذاتي » في مراحلنا السابقة فان الاكتفاء بمثل ما يعكسه في تحولنا المصيري هال حبيبا بالفرق العظيم ، في المآل ، بين ما كان الواقع العربي من تمزق وخسرى واندحار ، وبين ما يمكن ان يكونه من مناعة وشموخ وانتصار ، ومن هنا راح يبرز مثيره هذا ، ويستثير به نحو الواقع المهمل الكامن في طاقاتنا وامكاناتنا التي لا تقهر ، وهو يفتن بتحريك هذا المثير في اطر منوعة يظهره بعضها خلال معركة داخلية يدور صراعها اعنف ما يكون بين الرضوخ والاباء في اسر عزيز مستذل . يقول للقدس المحاصرة في قصيدته « وجها لوجه .. مع الطوفان » :

« انا في سجني لا املك شيئا

لك ياهيكل وجدي

غير قيدي

غير ذلي وانكساري »

ويمضي مبرزا عجزه عن دفع الخطب الجسام ، في انفعال يفجر فيه عجزا آخر : هو العجز عن الاستسلام ، او الصبر عليه ، ثم يمضي في رجفة الزلزال متسائلا يتقرى ، بالحيرة والشك ، وجه الحقيقة، ولا يكاد ينتهي حتى تنتصب له صريحة على غوارب الطوفان ،فيعلنها جهير الصوت ، ثابت الجنان :

« كذب زعمي وبهتان وزور

ليس من قيدى جراحاتي وناري

ليس من سجني احتراقي وانهياري

انه من عالمي الرحب وجبني

عالي الرخو وجبني وهزالي

وفي قصيدة « التاريخ والتلامذة الصغار » يرسم مثيره ضمن مقارنة بين الماضي والحاضر ، يعقدها بعد مقدمة ضمنها ازمة شعوره بضغط الهزيمة ، في مواجهة سؤال ذكي الحيرة يحرجه بتلامذته الصغار ، ويختمها ببشائر تعد بما تعد الصغار له من بناء الغد الظافر ، وكأنه يطبق منهجا يحرك العوامل التاريخية في سبيل توعية قومية فاعلة .

واليك السؤال الحرج وجانبا من جوابه :

حدثتنا عن امسنا العتيق
عن ارضه الياقوت والعقيق
عن بيدر الشموس والكواكب
عن رحمة الاعلام والمنائر
. . . عن . . .

***

اغارت النجوم من سماء
حاضرنا ؟
وشاحت الليل
اسقط الزمان من عياء ؟
وغاصت الجياد في الرمال
والتهم الحريق وجه الشاعر
فلم يعد لديه ما يقال

***

الم يعد ... ويشرق السؤال
بالدمع والرجاء والحنين
ويصعق المعلم انفعال
ويغرق المكان في سكون

***

لا .. لم يعد حاضرنا شتاء
.. تفجر التراب الف شمس
في يومنا الحافظ سر الامس
تفجر التراب الف شمس
وانهمر العقيق والاقاح
وانطلقت فوق الصحاري الخيل
هادرة مثل جنون السيل
تسابق الابعاد والرياح
تريد ان تستبق الرماح
الصاعدات من قرار الليل
حاملة مشاعل الصباح

ويجيء مثيره على انحاء اخر في قصائده : « محراب النوم » و « الزمن ومنطقة الفراغ » و « رياح السموم والعنقاء » على ان هذه المظان لبروزه لا يعني خفوته فيما عداها من مقاطع الفصول ،فالو قع انه نابض في الفصول كلها نبضات قلب يوزع دمه .

بقي مما يجدر الوقوف اليه رمز الغلاف ، واسم الديوان ، ومذهب القول فيه وهي امور لم ادخلها في تصميم هذه السطور ، لهذا اكتفي بهذه الاشارة ، واشد على يد الاديب « الحبيب » قرير العين بباكورته المحملة بزخم نتوقع ان يتوقل به في مصاعد ازدهار مطرد ، ومعارج تقدم لا يقف .

**صدرالدين شرف الدين**

# من دفتر .. الصمت

## ديوان الشاعر محمد عفيفي مطر

منشورات وزارة الثقافة والارشاد ـ دمشق

***

بعد انتظار طويل جاءنا من سوريا الديوان الاول للشاعر الذي أحب مصر بكل ذرة في كيانه .. والذي تنفست قصائده ريفها وفلاحيها ، واقتربت من اكثر همومها تغلغلا في الوجدان القومي وتعبيرا عن جوهره. بينما تصدر مطابع القاهرة ومؤسسة التأليف فيها عشرات الدواوين السخيفة والاشعار الهابطة . وكأن بين وزارة الثقافة عندنا وبين النماذج الجيدة في الشعر والنقد والقصة عداء قديم .. جاءنا من سوريا ديوان محمد عفيفي مطر ( من دفتر الصمت ) في اواخر العام الماضي متأخرا عن موعده بسنوات عديدة . فمحمد عفيفي مطر شاعر موهوب ووجه بارز من وجوه حركة الشعر الحديث . بل هو في الواقع من الشعراء الذين ساهموا بقصائدهم الناضجة في تأصيل هذه الحركة وتأكيد طاقتها الابداعية . فقد ساهم فيها منذ أوائل الخمسينات . واستمر انتاجه الخصيب يغذي هذه الحركة ويؤكدها حتى اليوم ، بقصائده العديدة التي واكبت مسار هذه الحركة الشعرية الاصيلة ، وأثرت القصيدة العربية وصحبتها الى بقاع لم يسمع فيها وقع للشعر العربي من قبل .

ومحمد عفيفي مطر شاعر أصيل له صوته الفريد وملامحه المتميزة. وهو شديد الخصوبة وافر الانتاج . الى الحد الذي يمكنا ان نقول فيه معه أنه أخصب شعراء المدرسة الحديثة في مصر واغزرهم انتاجا. فقد كتب عددا من القصائد الجيدة تكفي فيما أعتقد لاصدار ما يقرب من عشرة دواوين . ومن المدهش أن يصدر اول ديوان له ، وهو ليس ديوانه الاول ، بعد حوالي خمسة عشر عاما من الابداع الشعري المتواصل والخصيب . ولقد أدى ظهور ديوان محمد عفيفي مطر الى هذا الحد الى توفركم كبير من الابداع الشعري جعله يختار دواوينه منه باسلوب وفهم جديدين . أسلوب يطرح للمناقشة بداءة لدى تناول هذا الديوان فكرة الديوان في مقابل فكرة المجموعة الشعرية . أو ما يمكن أن ندعوها بفكرة الديوان البنائي في مقابل الفكرة القديمة الشائعة عن الديوان التجميعي . فديوان محمد عفيفي مطر الذي بين ايدينا . ليس مجموعة من القصائد التي تراكمت عنده حتى بلغت كمًا يكفي لاصدار ديوان . أو حتى مجموعة من القصائد التي كتبت في فترة زمنية محددة وجمعها في ديوان كما يفعل معظم الشعراء العرب ، لا فرق في ذلك بين تقليدي وحديث . فالتقليديون يواكبون خطوات الشعراء القدامى . أما المحدثون فانهم لم يكتشفوا بعد أن قضية الحداثة تتناول ضمن ما تتناول فكرة الديوان ذاتها . فيقدمون بذلك ما أطلق عليه الديوان التجميعي او المجموعة الشعرية . ولكنه يقدم عددا من القصائد المنتقاة بذكاء وعناية لتشكل في تتابعها وتلاحقها تيارا مستمرا و« متشابكا » ومتجها صوب هدف بنائي محكم . يعكس رؤية شعرية متكاملة وموقفا شعريا واضحا .

ففي الديوان قصائد كتبت على مدى فترة زمنية تمتد من عام ١٩٦٠ حتى أواخر عام ١٩٦٦ .. وهذه القصائد ليست كل القصائد التي كتبها الشاعر في تلك الفترة . ولا هي بالقطع أفضل هذه القصائد حتى يقدمها على غيرها وفقا لمعيار من معايير الجودة الفنية . فهناك عشرات القصائد الجيدة الاخرى التي كتبت خلال الفترة نفسها ولكنه لم يضمها الى هذا الديوان . لانها قد تشارك في هيكل بنائي آخر ، يقدم وجها خاصا من وجوه رؤية الشاعر للعالم . غير ذلك الذي يقدمه ( من دفتر الصمت ) . ومن هنا فأن كل ديوان من دواوين محمد عفيفي مطر الشعرية يطرح للمناقشة قضية رئيسية بكل تنويعاتها وتفريعاتها وروافدها ـ هي في ( من دفتر الصمت ) قضية الحرية ـ .. قضية

اساسية تشكل مع غيرها من القضايا التي تطرحها دواوينه الاخرى (١) ملامح عالمه الشعري الاصيل والرحيب . فلمحمد عفيفي مطر كمايقول الدكتور عبدالقادر القط ،، اسلوبه الشعري الخاص الذي ينبع منمفهوم فلسفي للشعر يسير بوجه عام في الاتجاه الذي يسير فيه كثير من الشعراء في العالم في السنوات الاخيرة . وأن كان له طابعه الشخصي المميز . فالشاعر يؤمن بأن الشعر ايحاء عن طريق استخدام اللغة لبناء صور شعرية شفافة بالمعاني والمشاعر التي يحفل بها عقل الشاعر ووجدانه . والوضوح اليسير ليس أفضل الطرق لنقل تجربة الشاعر الحديث . بكل تركيبها في ذاتها من ناحية . وبكل ما في نفس الشاعر من فلسفات وثقافات من ناحية اخرى . ولا بد للقارىء أن يبذل مجهودا خاصا لتذوق هذا الشعر . فلا يقف منه موقف المتلقي المحصن كما يفعل مع الشعر التقليدي . وللاستاذ محمد عفيفي مطر طابعه الخاص في هذا الاتجاه ـ كما قلت . وهو يتمثل في قدرته الفائقة على توليد العديد من الصور الحسية النابضة بالحياة الموغلة في التجسيم . وفي سيطرته على الالفاظ بحيث يستطيع ان يؤلف منها بين الاضداد ويمحي منها كل ما كان يخيل الينا انه قد مات او فقد القدرة على الايحاء ،، (٢) فمحمد عفيفي مطر ـ كما يبدو هنا من حديث الدكتور عبدالقادر القط ـ يثير معه عندما يفد الى لوحة الشعر العربي الحديث قضيتين اساسيتين تصحبهما مجموعة من القضايا الفرعية . هما قضية مواكبة احدث تيارات الشعر العالمي على صعيدي التجربة الشعرية والبناء الشعري . وثانيهما قضية الغموض التي لمسها برقة هنا الدكتور عبدالقادر القط والتي تحدث عنها عدد كبير من الذين تعرضوا لدراسة قصائد محمد عفيفي مطر أو تناولوا تجربته الشعرية . وسوف نحاول هنا ان نتناول هاتين القضيتين دون ان يصرفنا تناولهما عن دراستنا النقدية الخاصة لديوانه وعالمه . بمعنى انهما ستدرسان في خلفية هذه الدراسة وليس في واجهتها .. ولنبدأ بقضية الحداثة التي ستطل علينا بتفريعاتها المتعددة في الفهم والرؤية والبناء .

فمن مواكبة محمد عفيفي مطر لتيارات الشعر الحديثة في العالم برزت فكرة الديوان البنائي التي تطرح نفسها مع أول دواوينه بصورة لم تطرحها من قبل مع أي من دواوين الشعراء المصريين . فيكاد الديوان أن يكون وحدة بنائية واحدة .. أقول يكاد لانه في الواقع منقسم الى وحدات أربع هي الاقسام الاربعة التي يقسم اليها الشاعر ديوانه والتي يضم كل قسم منها مجموعة من القصائد . يبدأها ( بالدوامة ) وهي مجموعة من الشظايا الشعرية التي تقوم بدور المفتتح الذي يمهد لعالم الديوان ولاغلب القضايا التي تدور فيه . ففيها نلمس ذلك التوق العارم الى التعبير والبوح والانطلاق الذي يجيش به دمه راغبا في الانفلات من اسار العروق ذاتها . وتلك الرغبة القوية في الالتحام بالارض والنبض معها وبها . وذلك الجوع الرهيب الذي ينشر رداءه على كل عالم الشاعر الشعري ـ للشاعر ديوان كامل عن هذا الموضوع هو ( الجوع والقمر ) ـ والذي يدفع الامهات تحت وطأة الهسيس الخفيض المرعب لنافورة الجوع الى التخلي عن اطفالهن . وتلك الرغبة الحادة في أن يغني منطلق الصوت وسط حدائق مزهرات بالحزن والبكاء . وتعارض هذه الرغبة مع واقعه الذي يحس فيه بأن صوته المذبوح عاجز عن أن يكشف عن شوق القلب الى التعبير ، وعن تلك التوهجات التي تحفر في الصدر الاصوات والاشكال والصور . فطائر الليل يوشحه برداء الظلمة ويجلل بالسواد أغنياته . فيموت الشعر الحقيقي على الشفتين قبل مخاض الميلاد .. ذلك لأن ..

الزيت محترق بأعصابي ، وريح الفحم باب
قد أغلقته يد من الصلب المذاب
فتصلبت قدم الهواء
والنور مرتعش يحاول أن يفر الى الخلاء .

لكن بصيص هذا النور يظل قعيد الظل الذي يسقط دوما بين الرغبة والفعل . ويتوقف الزمان عند هذه اللحظة الكئيبة . ويمر العمر هباء . فيقضي الانسان ايامه دون ان يحقق نفسه في حقل التعبير . وتتجمد في القلب الافكار . ويتمطى في الصدر الصمت .

صمت وباب مغلق ، والصبح انسان صغير
أقدامه ابتلت وجر ثيابه عبر القرى
غنى ، فلم أسمع له . نادى ، فلم أفتح له
صلى ، فلم تنفذ صوته عبر الجدار
الطفل مد ذراعه واهتز في العين الشجر
نادى ، وولى مسرعا يجري ، يجر ثيابه تحت المطر

أن ( الدوامة ) بتكونها من هذه الشظايا الشعرية العشر ، الحادة والمتنوعة . تومىء بأسلوب شعري خاطف الى تلك الدوامة الرهيبة التي يعيش فيها الشاعر . والتي تتخطفه دوائرها الرهيبة . فتحبط الكثير من أعماله وأفكاره ورؤاه ، وهي لما تستشرف بعد ألا مع المخاض . ومن ثم كان من الطبيعي أن يأتي بعدها مباشرة هذا القسم المعنون ( من دفتر الصمت ) والذي يضم تلك القصائد الخمس التي تلح على ان تأسر بين دفتيها عددا من تنويعات آثار الصمت الرازحة فوق جزئيات هذا العالم . والتي تبدأ في التكشف التدريجي عن ما بها من بشاعة حتى تتصاعد الى ذروتها المأساوية في القصيدة الاخيرة ( عذراء الصمت والصمت ) .. فهي تبدأ بالتلويح بأن الهزيمة هي انتصار الشاعر الوحيد تحت وطأة هذا الصمت الرازحة . هي قدرة ومن ثم عليه ان يواجه به العالم دونما خجل .. أن الشاعر في عالم محمد عفيفي مطر الشعري هو صورة أخرى من أيوب الممتحن بالعذاب . ولكنه عذاب غير ذلك العذاب المرضي الذي عاناه أيوب . عذاب غير عذاب الاختيار لانه عذاب من نوع آخر .. من ذلك النوع الذي عاناه بروميتيوس لانه جرؤ على اقتحام الهيكل وعلى انتزاع قبس المعرفة من بين لفائف الاسرار .. ومن هنا فأن عرس الشاعر العظيم عرس غريب كعرس أيوب في قصيدته .. أنه عرس المعاناة والأوبة الخائبة دونما تحصيل .. انه عرس الهزيمة ..

في ليلة عرسك ياأيوب
سيساق اليك الهودج مطويا من غير عروس
ستمد اليك موائد لا يعمرها غير السوس
وسيرقص في محفلك جراد الصيف
وتموء القطط الليلية ..

ان عرسا كهذا هو في الواقع زفاف دام الى الاحباط والعجز عن التعبير والعودة من حدائق التأمل والمعاناة دونما ثمر . وكل تلك الصور التي تتبدى وكأنها عروس الشاعر الاثيرة في عالمنا أو كأنها قدره ... وهو برغم هذا شغوف بعروسه تلك .. حفي بها . لأنه يعرف أن عمل الشاعر كما يقول أرشيبالدماكليش ،، ليس في الانتظار حتى تتجمع الصرخة من تلقاء نفسها في حلقه . بل أن عمله هو ان يتصارع مع صمت العالم ومع ما كان خلوا من المعنى فيه . ويضطره الى أن يكون ذا معنى . الى أن يتمكن من جعل الصمت يجيب وجعل اللاوجود موجودا . أنه عمل يأخذ على عاتقه ان ( يعرف ) العالم لا عن طريق التأويل او الايضاح . ولكن مباشرة ، كما يعرف الانسان التفاح في فمه ، (٣) فعمل الشاعر كامن في الاحتفاء بكل هذه الجزئيات الخالية من المعنى حتى يجبرها على ان تنطق وأن تفصح وأن تبوح . عليه أن يصارع الصمت والعجز والاحباط وأن ينتزع من أدغالها الكثيفة أوضح الشعر وأفصحه

(١) كتب الشاعر حتى الان اكثر من ثمانية دواوين . لم يطبع منها سوى ( من دفتر الصمت ) و ( ملامح من الوجه الانبادوقليس ) أما بقية الدواوين فهي ( الجوع والقمر ) و ( يتحدث الطمى ) و ( انعكاسات القمر الاسود ) و( رسوم على قشرة الليل ) و ( الحصان والجبل ) و ( الشهيد والطعنة في الظهر ) ... وغيرها .

(٢) الدكتور عبدالقادر القط ، نقد الشعر ، ( الآداب ) البيروتية ديسمبر كانون أول ١٩٦٦ .

(٣) الشعر والتجربة ، ص ١٧ .

.. وبذلك وحده يؤكد الشاعر أن الهزيمة ليست أبدا ابنة عجزه عن المعاناة الصادقة العميقة ، أو فشله في التملص من أسار ( مقبرته القديمة ) التي تعفنت فيها روحه وأعشبت سمومه .. ولكنها وليدة العديد من الظروف الاخرى ، تظل علينا بسفور في حديث القبياديس الذي أطاحت به كراهيته الدائمة للأسوار التي أقامها في وجهه رجال أثينا بغبائهم الدائم وتمسكهم الزائف بالأشياء البالية .. انه ابن هذه الظروف وضحيتها معا . . ابن ما فيها من عفن وتفسخ وزيف وضحية لهذا كله . أن الظروف والاوضاع المغلوطة التي عاشتها أثينا بعد بريكليس هي التي أنجبت القبياديس بشجاعته ومجونه . بذكائه الخارق وسفاهته ، ببلاغته الساحرة وسفسطته المتلعثمة ، وبحكمته وعهره، بوطنيته المسرفة وخيانته البشعة . وبكل ما في شخصيته من غموض وسحر وغرابة . وكان هذا الخليط العجيب من الصفات والمواهب المتناقضة هو الذي نصب القبياديس آلها صغيرا في أثينا . يعبده الشباب لدرجة الجنون . ويذكره الشيوخ وعلى رأسهم نيشياس صاحب الصلح المعروف مع اسبرطه . وهو أيضا الذي أودى به وبأثينا معه ..

أنا كنت ـ ياقاتلي ـ في أثينا ، آلها صغيرا
على مفرقي الغار ، أمشي على بركة من دماء
وقد أخرستني الغباوات اذ تلبس الدرع
تمشي بظل السيوف
وفي أعين الجند لا أعشق الصمت والموت ، أجثو اليك
ويسخو له البحر في عنفوان العناق الأخير .

والقبياديس هنا ، وفي المقطع الاخير من القصيدة ، يكاد يرتد بنا من أغوار التاريخ القديم الممتد ألى أكثر من أربعة قرون قبل الميلاد، الى واقع الشاعر المعاصر . ليصبح في حكمته ومجونه ، وفي انطلاقه وجموحه وجها من وجوه الشاعر الذي يعيش اغترابه العميق بالرغم من امتداد جذوره في رحم الأرض لمسافات بعيدة . وبالرغم من التصاقه الوثيق بالارض التي ولد فيها وما زال تيار قوي منها يسري فيداخله. يأسره ويحرره معا . وليصبح في ضياعه الاخير الذي دفعته اليه الغباوات الاثينية التي ترتدي اثواب العقل والحكمة ، وتتقنع خلف واجهات عريضة من الادعاءات والشعارات ، وجها آخر من وجوه ضياع الشاعر الحديث تحت وطأة آلاف المطاردات والمكابدات اليومية الرهيبة .. تلك التي يفقد تحت وطأتها كل شيء .. أمسه ويومه .. وغده ..

ما عدت أذكر غير أني جئت عبر مناجم الارض السحيقة اخرسا
لأراك يابرقا رهيبا دامسا
وأنام فوق صليبك الليلي مهجورا لكي يفتالني قمر الجليد
وأظل مطروحا تمثل بي الرياح
وتصب شمس الارض فوقي كل ما طعمة من جثث ورعب وانتظار
ما عدت أذكر غير أني جئت للأرض القديمة غازيا
في القلب أسفار الهزائم ، خنجري بين الضلوع

هذه هي غزوة الشاعر الكبيرة . يخوضها وفي قلبه أسفار الهزائم. وبين حناياه ينغرس خنجر دموي يستل من داخله بريق الحياة . ليصبح الشاعر بتحديه اليائس وبفشله البطولي ذاك قرينا لعذراء الصمت التي تنسحق مع بنيها تحت وطأة الصمت القاسية ـ في تلك القصيدة الرائعة التي تستحق وحدها دراسة كاملة ـ ..فهو حبيبها وابنها معا .. واحد من أهلها الفقراء الذين تغربوا في الليل وضاعت مع الهواء طعناتهم .

تغرب أهلك الفقراء في الليل
تطاردهم قناديل الشوارع والعيون الخرس والحرس
خناجرهم بقلب الريح تنغرس
وينحدرون في الظلماء ، خناجرهم غير دم واقمار
عباءتهم أساطير
وجوع أخضر العينين في الأصلاب محفور

أن الشاعر يبلغ هنا من القدرة على الايحاء والتكثيف درجة لا يمكن أن يرتفع اليها أي تعليق نثري على تلك الأبيات التي تأسر بين حروفها الدقيقة ملامح واقع حضاري بأكمله .. عالم من الوقائع والاحداث والمواضعات والقيم وقد استحال الى صورة حسية مليئة بالمعنى ناطقة بالدلالات . قادرة على أن تثير في أعماقنا من خلال غربة أهل هذه العذراء . التي تمتاح في القصيدة حدود جسمها البشري لتصبح عالما كاملا من الرموز والرؤى ، عشرات الوقائع والأحداث عن هؤلاء الذين تطيش مع الهواء ضرباتهم .فينحدرون في سراديب الظلمة حيث يحجب سوادها الرؤية . وتنقلب الخناجر المشرعة في وجه الهواء والاشباح اللعينة لتلتهم بعضها البعض . فقد أعمتها الظلمة والمطاردة وفقدان الامان . وبعد هذه الرحلة الليلية يفقد العنف طريقه ويفقد معه وجوده . ليصبح نوعا من الحكايا التي تسرد في ضوء القمر ، بعد الاوبة الخائبة من مطاردة تلك الهياكل الشبحية المهولة التي تتلفح بخيامها الدخانية ويصلصل موكبها بأجراس الدم المخطوف من أطفالنا الزغب . أو يصبح نوعا من التواريخ التي يختلط فيها الوهم بالحقيقة . فتستحيل الى أسطورة تروي تحت عباءة الجوع الذي ينشر رداءه الكثيف على كل شيء .. لانه ليس جوعا الى الطعام فحسب .. ولكنه جوع مادي معنوي معا .. جوع الى البوح والى الحب والى الافصاح عن الرغبات المكبوتة والتمنيات المحبطة . أنه جوع الى تحقيق الذات والى الآخر معا . جوع الى الفاعلية والى المشاركة والى اخراس ذلك الصوت الصامت الذي ينطق دائما في عيني العذراء بالاتهام ...

ويا انسان ...
بقايا من خشاش الأرض أنت وشائه الخلقه
تطاردك العساكر والقناديل المسائية
فتضرب تائها من مهدك الثلجي للحد
دماؤك ليس تخضر
وأرضك لم تفجر ماءها بئر
وطول الدهر لم تثمر شجيرات الدم المغدور
عنقودا من الغضب
ولم تضرم بكائياتك الخرساء نار الشعر في الحطب
فمزق وجهك المجدور
فقد شنقتك من عام الى عام ....

الى هنا .. ويكف الصوت الصامت في عين العذراء عن الافصاح. وتترك لابنها ولحبيبها معا أن يفهم وحده بقية رأيها فيه . في تشوهه وفي تيهانه من المهد حتى اللحد ... وتبدد جهده دونما اثمار واجداب ارضه حتى لا يتفجر منها أي نبع قادر على الري . فكل هذا التشوه والضياع هو الذي أجهز على شجيرات الدم المغدور في مهدها فلم تثمر عنقودا من الغضب . ولم تضرث البكائيات الخرساء الدفينة في الصدور نار الشعر في الحطب . فما عليه بعد كل هذا غير أن يمزق وجهه المجدور المليء بالتشوهات والبثور .. وتستمر نبضات العنف التي تبرق تحت جلد القصيدة في التصاعد حتى تبلغ ذروتها بالقرب من غايتها التي تمهد للقسم الثالث من الديوان ( في ارض الموت ) ذلك القسم المليء بمشاهد القتل والعنف والفرق والموت . والذي ينتهي بتلك الحوارية الطويلة مع عزرائيل بعدما الفه الواقع .. أقصد الشاعر واعتاد فحيح خطواته بين السنابل والحقول . بل حتى وفي قيائر الاعراس التي تنتحب في أوتارها الفرحة أصوات الحزن والقتل والموت . فخطوات هذا الموت تعلن عن نفسها في اكثر جزئيات الحياة توهجا بالحياة ..

خطى عزريل تقترب
تفح بها السنابل والفروع الخضر والقصب
يسيل بها احمرار الماء

في مواسم الفيضان ، حديث يحمل الماء من غرين الحياة والخصوبة أضعاف ما يحمله في الفصول الاخرى .. يسيل صوت الموت من هذا الماء المحمر من كل شيء يعيش تحت هذه السماء البيضاء التي يذكرنا أبيضاض سحبها الجديبة ببياض العين من الحزن ومن العجز عن الرؤية معا . وفي هذا القسم الثالث من الديوان نرى كيف تزحف

اسراب الموت وئيدة فوق سيقان الحياة الغضة . وكيف تلتهم جحافله أجنتها قبل ان تتفتق عنها الارحام . وكيف يغتال الموت كل العلاقات الواعدة بالحياة . ففي ( منظر قتل ) نرى كيف يتوج الموت علاقة الحب الوليدة . وكيف تتحول هذه العلاقة من خلال اغراقها في الاحالات والرموز الشعبية الريفية الى شيء اكثر من مجرد علاقة شاب بفتاة. لأنها تضم بين أحضانها عالم القرية الرحيب بكل ما فيه من أشجار وسنابل وغيطان واقمار وسواق ومواويل وجسور وقواديس . وبكل ما فيه من خوف ورعب وصمت وجوع وخرافة . أنها تتحول الى علاقة الانسان بقريته والى علاقة الشاعر بموضوعه والى علاقة العاشق بحبيبته والى توق المغترب لاهله ووطنه .. الى كل هذا معا ، بل والى ما هو أكبر من هذا بكثير . ومن ثم تصبح الجثة القتيلة شارة على أخفاق كل هذا وقربانا يقدم في هيكل هذا العالم المليء بالصمت والخوف والاحباط .لتستصرخ مع آلاف القرابين القديمة الهمم . وتصرخ مع عصافير الدم المسفوح حتى تثمر شجيرات الدم المغدور عنقودا من الغضب . يستطيع أن يعيد ، فوق ارض القرية ، من جديد صنع الحياة.

وتتحول الاحالات والرموز الشعبية في ( الغريق ) الى شيء يتيح لحادثة الغرق نفسها في الوجدان . ما للحكاية الشعبية من ظلال وايحاءات . لأنه لا يستعير أسلوب الخرافة أو الحكاية الشعبية في الفهم والرؤية فحسب ، ولكنه يستعير أيضا أسلوبها البنائي. فشكل الشعائر والطقوس الشعبية هو نفسه ـ كما يقول د.هـ.لورانس ـ مضمونها ومحتواها . وفي بعض الحكايا الشعبية يتحول عزرائيل الى شيخ طيب يوارى في عباءات الطيبة تحفزه للشر وغدره . وهذه الصورة هي نفس الصورة التي يواجهنا بها عزرائيل في ( تحت السماء البيضاء ) عندما تتلصص خطواته المتوددة لتستل الرحيق من العروق وتنثر مكانه الموت والذبول والخراب .

خطى عزريل تقترب
آراه الآن يغسل خفه الذهبي في السحب
ويغمز لي بعينيه المغامرتين في الحقب
ويغويني بما في الليل من أقمار
وما في صيفه السفلى من تمر ومن أطيار

يلوح لي بما في جيبه السحري من سعف وزيتون وأعناب ها هو عزريل وقد أصبح صوتا اليفا متوددا ، يعد بأشياء لا تعد بها الحياة نفسها . ويمرح تحت السماء البيضاء التي تنشر الجدب والفقر والجوع . لتكتمل بذلك بقية الصورة التي أرهصت بها شظايا الدوامة . واتضحت ملامحها في ( من دفتر الصمت ) ثم اكتملت هذه الملامح وتبلورت في ( في أرض الموت ) ليأتي القسم الرابع والاخير من الديوان ( حوار مع الصاعقة الخضراء ) الذي تحس فيه بعلاقة انسان هذا العالم بجزئيات عالمه وموقفه منها . تلك العلاقة التي تقف في خلفيتها مجموعة من القضايا الفلسفية . والتي ترفدها عدة فلسفات بدءا من الفلسفة الرواقية حتى الفلسفة الحديثة ، مرورا بالفلسفات الاسلامية .ففي قصيدة ( حسن وجليلة ) تتجسد هذه العلاقة من خلال علاقة حسن بحبيبته جليلة . هذه العلاقة التي تبدو للوهلة الاولى وكأنها علاقة حب عادية . لكنها ما تلبث أن تتكشف عن أنها ليست ابدا تلك العلاقة البسيطة السهلة التي تتحول فيها الحبيبة الى مشجب يعلق عليه الشاعر احزانه وآلامه . كما في اغلب قصائد الشعر الحديث . او الى صديقة يناجي فيها شطره الآخر .ولكنها علاقة عضوية شديدة التعقيد والتركيب . علاقة مليئة بالتفاعل وبالصراع وبالعنف . مليئة بالشد والجذب . بالاقبال والاحجام . بالرغبة والتملص . علاقة تنشد من الحبيبة نوعا من الذوبان والحلول العنيف ، لا الصوفي . انها علاقة قدرية لا مهرب منها ولا فكاك . ان جليلة هي قدر حسن وهي شعره وحياته . هي وجوده وضياعه . هي تحققه وخيبته . دمه المسفوح وماضيه ومستقبله وكل شيء . وهذه العلاقة نفسها تكاد ان تكون امتدادا للعلاقة بين العذراء وبينها واهلها في ( عذراء الصمت ) وبين الفتاة وحبيبها في ( منظر قتل ) وأن أختلفت زاوية النظر الفلسفية فيها واختلف الموضوع والموقف .

فالعنف هنا لا يجهز عليه الخنجر ، ولا يوقف تياره الدم . ولكنه ينبض تحت جلد العلاقة من أولها الى آخرها . يتخلل كل جزئياتها . يطل في لحظات الاسترخاء بنفس القوة التي يطل بها خلال لحظات التوتر . يبرز في اقبالها عليه بنفس الدرجة التي يظهر فيها في احجامه عنها . وهو ليس احجاما بالمعنى المألوف للكلمة . انه نوع شديد الخصوصية من الاقبال ومن الحب ومن الرغبة . أنه ذلك التواصل الذي يتبدى في عدم التواصل . وهو الانفصال الشديد الذي يكاد ان يكون هو نفسه أصفى انواع الاقبال الشديد المتطرف . وهذه العلاقة الحسية المتجسدة في حب حسن لجليلة هي في الواقع صنو علاقة الشاعر بهذا العالم الذي اتضحت في الاجزاء السالفة معالمه .. وهي علاقة ( حمدون القصار ) بنفسه وبعالمه . وهي علاقة الشاعر نفسه بهذا ( الوجه الهارب ) الذي يلوح كالامل في الافق لحظة ليختفي ساعات . أن هذا الوجه الهارب الذي يتجسد فيه بحث الانسان الدائب عن الخلاص وعن الامل . يطل في آخر كلمات الديوان من خلال العتمة واضحا وسافرا ، كبصيص أمل طال الشوق اليه . بعدما مهدت له عشرات الومضات التي تبرق واضحة مرة وخابية أخرى وسط الديوان ..

أكاد أراك في العتمة ، وخلف نوافذ البلور .
أكاد اراك فوق المقعد الخلفي في
كل القطارات التي تأتي من المجهول أو تمضي
وأسمع صوتك الفضي
يصلصل في عروق الارض حتى يورق العالم .

فهذا الوجه الهارب الذي يتوق اليه الشاعر دوما ، هو الذي سيحقق له كل شيء .. هو الذي سيفك وثاق العذراء المشبوحة في ساقية الصمت . وهو الذي سيجهز على خطوات عزريل التي تفح بها اكثر جزئيات الحياة توهجا بالميلاد والخصوبة . وهو الذي سيهب العالم الخصب ويملأ الارض الجديبة بالمطر . أنه صورة أخرى من ذلك الطفل الأشيب ( ملك الامطار ) الذي يضرع اليه الشاعر أن يعمده واحدا من جنوده . . من جنود الحب والخصب والحياة ..

ياملك الامطار ،هبني شارتك الفضية
خذني في حاشية الريح وعمدني جنديا في البرية
علمني أسرار العالم
نصبني في أعراسك عازف قيثار
وامسحني بالزيت الطيب ، واغسل قلبي

وأن يغسل قلبه من كل المخاوف والاحزان . حتى يستطيع أن يكون أهلا لتلك المهمة الكبيرة التي يضطلع بها ملك الامطار . مهمة أعادة الخصب الى وجه الحياة .

هذه دفقة ضوء سريعة حاولت ان اريقها على عالم محمد عفيفي مطر الشعري . دفقة سريعة تظهر مدى ما فيه من خصب وأصالة . وتشير الى عشرات القضايا التي تظل علينا من هذا العالم والتي تحتاج كل منها الى دراسة منفصلة . وفي مقدمتها كراهية الليل والصمت والموت . والرغبة في التحرر والانطلاق والبوح . والتوق الى الخصوبة والى العطاء والى المشاركة الفعالة في اعادة صياغة كل الجزئيات المغلوطة التي تسيطر على واقع الشاعر وتنشر فوقه أرديتها الخانقة . والمعاناة الشديدة من ذلك الظل الذي يسقط ـ حسب تعبير عزيز على اليوت ـ بين الرغبة والفعل ،بين الفكرة والاحباط ، بين الوعي والقدرة على الانجاز . والشوق الشديد الى الارتجال من محافل الخرس الرهيبة الصاخبة بأصوات الصمت ليستطيع الشاعر ان يعبر عن نفسه . وأن يكون صوتا واضحا في الحياة يعبر عنها وينقل ما يرتعش به ضميرها من رؤى واحلام .. وغير ذلك من القضايا التي تحتاج الى وقفة نقدية تتأمل اسلوب الشاعر الخاص في تناولها وطبيعة فهمه لها

وتعبيره عنها . وقد اهتمت هذه الرحلة النقدية السريعة بالتعرف على ملامح عالم الشاعر من الناحية الفكرية والمضمونية بالدرجة الاولى . ولم تتطرق الى الناحية البنائية الا بشكل سريع . ومن ثم فسوف نحاول ان نتعرض هنا لبعض وجوه هذه الناحية الهامة في الشعر بشكل اكثر تفصيلا .

وأول قضايا الشكل التي يطرحها هذا الديوان تنحت ابرز ملامحها من اسلوب الشاعر في بناء القصيدة . ذلك الاسلوب المتراكب الذي يحاول ان يتحرر من الطريقة الغنائية وان لم يطرحها خلف ظهره بشكل كامل .ومن هنا تبدو قصائده متشابكة كأغصان شجرة جميز عتيقة ، مليئة بالمنحنيات . وكذلك جملته الشعرية طويلة هي الاخرى ومليئة بالمنحنيات . تعترضها الجمل الاعتراضية كثيرا ، لكنها ما تلبث ان تلتف حولها وتجتازها لتواصل السير من جديد . وهذا الاسلوب في الصياغة ليس شيئا منفصلا عن طبيعة بناء قصائده المتراكبة ولكنه أحد وجوه هذا البناء المتراكب. وهو بناء يميل الى التركيز على الحسيات باعتبارها طريق الفن الاصيل الى الفكريات . والى الاهتمام بجزئيات الحياة البسيطة والعادية وتفجير كل هذه الجزئيات المتناهية البساطة والعادية بكل ما في الشعر من تدفق وانطلاق . لا يميل الى التجريد بل يبدو أنه يكرهه . فليس هدف الشعر – كما يقول بودلير – أن يغوص في أعماق اللانهائي كي يعثر على الجديد . بل أن يسبر اغوار المعطيات المحدودة حتى يعثر في أعماقها على مالا ينضب له معين . فمن خلال هذه المعطيات المحدودة يستشرف الشاعر ، برؤيته العميقة وبصيرته الحساسة ، علاقات جديدة . علاقات لا يقرها المنطق او قانون السببية. بل تنبع من خلال التزاوج المتناسق لاستهداف المعنى . وهذا التزاوج بين الصور هو أسلوب عفيفي مطر الاثير في صياغة استعاراته وفي بناء قصائده . بل أنه كثيرا ما يلجأ الى نوع آخر من التزاوج هو ما يسميه كينيث بيرك – « التناسب الناشىء عن عدم التناسب » وذلك باستعماله المتجاورات المتناقضة والمتنافرة بمهارة وحذق . واستخدامه الدائم للكلمات ، باعتبارها خالقة صور لا صانعة تصورات ، باقتدار ومهارة تبعث الكلمات وهي رميم . ولا تستنكف استعمال أكثر الالفاظ ايغالا في القاموسية أو اشدها تدنيا الى مستويات الحديث اليومية . مشكلة بهذا الاساس الطبيعة الخاصة ليس لقاموسه الشعري فحسب . ولكن لاسلوبه في صياغة الصورة وفي التعبير بها والتفكير بها كذلك .

وهذا الاسلوب في اختيار الكلمات وصياغة الصور هو اكثر الاساليب توافقا مع عالم محمد عفيفي مطر الشعري ومع الارضية الريفية التي اختارها مسرحا لعالمه . ونسج من مادتها أغلب جزئياته . فأجرى فوقها كل احداثه . وطبيعة القرية المصرية التي نجدها وراء كل صورة من صور محمد عفيفي مطر الشعرية هي التي تدفعه الى استخدام ما يسميه جون كرورانسوم باللغة البدائية . وهي اللغة التي اذا حاول الكلام فيها أن يكون فكريا اضطر الى أن يكون بداءة صوريا او محسوسا . وهذه اللغة البدائية الحسية بينها وبين علماء السيمنتيات ( علم المعاني ) عداء ملحوظ . لانها تشير دائما لاشياء محسوسة وكلية وذات صفات كثيرة .تشير للاشياء كوحدات كاملة مليئة بالزوايا والتفاصيل . وليس كجزئيات مجردة دالة علمية ومحدودة . أن اللغة البدائية بحالتها تلك تفسح المجال في الشعر للرؤية والنبوءة . وتبتعد به عن مجال الاستقصاءات النثرية السقيمة .فطبيعة العمل الشعري تستعصي دائما على العمل السيمانتي . لانها حتى لو استخدمت الكلمات ذات الدلالات المحددة والواضحة فانها تفرقها في تيار يستهدف ابراز اثر الكلمات كأصوات بجوار دلالاتها كرموز انفعالية او استدلالية . وهو بذلك يحاول اخراج الكلمة من اطارها السماتي التقليدي ليضعها على مشارف عالم آخر هو عالم المجازات والاستعارات . حيث تتنامى في هذا العالم الرحيب سلطة المراوغات والحيل التي ترمي الى احلال

## تتمة صلوات الشيخ الازرق

يا ثوبا ازرق عابق
بالطيب الهارب من جنات الله
يا كفا تفتح باب العهد
لقلوب اضواها الوجد ...
يا مولاي « التالي »
يا ثوبا ابيض
منسوجا من طهر الفل المتفتح
من فوح النسرين
يا ابهى مصباح
في الظلمة ...
في درب الايضاح
يا سند المؤمن اذ تنكشف اللمة
وتزول الغمة
لرحيل قلوب
في لهفة قنديل التوحيد تذوب !
يا ساداتي الخمسة
لو رؤية طيف ... لو همسة

لو ومضة وعد في اشراق
لارتاح القلب
لسخاء السكب
ولطلقت لفيض الاشراق منامي
وحرمت جفوني الغمض
خليت طعامي
لنمال الارض ! »
يا شيخي الازرق
يا وجه محبه
وجبينا يقطر اشراقا
وحنينا للفيح الاول
في هذي الغربة
يا صوفيا يحمل ربه
طي الجبة !
لو يطفأ في عقلي الشكاك
مصباح العلم الضارب
في ليل الافلاك

يطرق ابواب كواكبه الرعشاء ...
يجول
ليعري آفاق المجهول
لو ادخل في الفرح الاكبر
في « شمل الاخوان »
اسكت فخاري الظمآن
اعرفت الفبطة يا شيخي
ونعمت بجنات اطمئنان
لانسابت في نفسي
انهار بيضاء !
ونجوم خضراء ...
لكني انسان
ما زلت بعيدا
عن درب التسليم الهانىء
ما زال
بتململ فيّ الثعبان
ويفح ...
يحرك في الاعماق
الف سؤال !

الالفاظ الصورية والحسية ( البدائية ) محل الالفاظ الفكرية المجردة والمحدودة .

من هذه الالفاظ الحسية التي هي عماد اللغة البدائية ، يتكون قاموس محمد عفيفي مطر الشعري . وهو قاموس معظمه من الالفاظ الوثيقة الارتباط بالقرية وبالحياة فيها .. فكلماته الاثيرة هي الشجر والسرو والصفصاف والجميز . والحواكير والنواطير والغيطان والسنابل والاعشاب . الشمس ـ الشروق والقمر والطمى والفرن والحدائق والزهور والفصول . وخشاش الارض والقناديل والعباءات والعصافير والضفائر والسواقي والقواديس .. الخ .. والوانه الاثيرة ، وعالمه زاخر بالالوان ، هي ايضا الالوان المقتطعة من هذا العالم . انها الوان الرماد والليل والفيروز والقصب . وسمرة الارض وخضرتها . وهي النيلي والبني والاصفر والاخضر . والزرقة المقتطعة من كبد السماء الريفية الصافية أو من التوتياء . والاحمر عنده ليس ذلك الاحمر الدموي الفاقع ولكنه الاحمر الهادىء الذي تشبه حمرته حمرة ماء النيل أيام الفيضان . وغير ذلك من الالوان المقتطعة من الزروع والاثمار كالزيتون والعنب . كما أن افعاله في اغلبها أفعال صور وحركة . ومن هنا فهي افعال مضارعة في معظم الاحيان لتجسد الحركة في آنيتها وحدوثها . وليست مجرد اشارات اخبارية تنبئنا بأن ثمة حركة قد حدثت وانتهت كما تفعل الافعال الماضية غالبا . وهي أفعال تحتفى دائما بتوهج الحركة وتسجل عنفها . كأفعال تتفجر وتغرغر وتحط وتصلصل وتنغرس وتتخاطف وتعشب وترتعش وتصعق وتطارد وتنحدر وتستقى .. الخ . وهي أفعال تسبقها كثيرا تاء التانيث بدلا من ياء المضارعة . لان معظم الاشياء في عالمه أشياء مؤنثة تعبر الافعال تاء تانيثها كمدخل للفعل وشارة . وتعطينا تلك الظلال التي تعنيها الانوثة والنسونة في عالم الريف المصري من خيبة وقهر وميوعة واحباط .

بقيت اخيرا كلمات عن قضية الغموض التي تثار كلما تطرق الحديث الى قصائد محمد عفيفي مطر والى منهجه الشعري .وهي تثار غالبا بعد الاعتراف بطاقة محمد عفيفي مطر وبقدرته الاصيلة على ابداع سيل دافق من الصور الحسية التي يغرق فيها بالغموض قصائده . والحقيقة أن الذين يتهمون عفيفي مطر بالغموض يدلفون الى عالمه عبر ابواب غير باب هذا العالم الشعري . وبمقاييس غير مقاييسه . انهم يريدون ان يطبقوا عليه المقولات المدرسية الجامدة . وينزعجون عندما يتأبى شعره على الانصياع لها . وعندما يحسون فيها بانفعال صادق واصالة حقة برغم تأبيها على المقاييس بهذه الصورة . وهؤلاء الذين يأخذون على الشاعر انفعاليته الصادقة ويتهمونه بالغموض يتعاملون معه بمقاييس مغلوطة. فليس الغموض هو ما يصدر عن الانفعال ، بل الوضوح الاسمى ـ كما يقول كلوديل ـ انهم بذلك لا يستطيعون الارتفاع الى مستوى الكلمة المشحونة بالانفعال . الكلمة الشعرية . الكلمة التي تتخطى حدود الدلالة النثرية الواضحة لتصنع افقا رحيبا من الصور والمعارف. بل يعاملون كلماته بالاسلوب العادي اليومي الذي لا تعني فيه الكلمات الاشياء بل تدل عليها . تعطينا عنها مختصرا سهلا وفظا ومحدودا . لكن الشاعر ـ كما يقول كلوديل ـ لا يستخدم الكلمات بالطريقة نفسها . أنه لا يستخدمها من أجل المنفعة . بل كي يشكل من سائر الاشباح المبهمة والصور المنفومة الطنانة التي تضعها الكلمة تحت تصرفه لوحة مفهومة وسخية في وقت واحد . ان العادة التي تستبدل طبيعة الاشياء الحقيقية بطبيعة ثانية . يعني بقيمة عملية خالصة سلسة وفعالة ، قد أصبحت عدوا له . عدوا ينبغي هزيمته وتنويمه . وتلك هي فائدة تكرار الاصوات وتناسق المقاطع وانتظام الايقاعات وتراوح درجاتها وكل وسائل الانشاد العروضي الاخرى .. ان من ينظر الى شعر محمد عفيفي مطر بتلك النظرة الرحبة التي يتطلبها كلوديل سوف يراه واضحا لا غموض فيه .. شديد البساطة والوضوح .

**صبري حافظ**

# في الطريق الى الآخرين

**( ١ ) هزيمة**

الهدوء الذي يبدأ العاصفة
غاص فيها مسافة
والوجوه التي تتشهى النهار
كبرت في الجدار
وتساقط قشر الجراح
واصلي يا كلاب النباح

**( ٢ ) جنازة**

العيون الحزينة
وقفت في تقاطيعه الباردة
وتوقف ضوء المدينة
فوق جفنيه ثم .. تعالى الرصاص

**( ٣ ) حب**

كيف ابادلك الحب ؟
.. ما زال القلب
يطفح بالصور التذكارية

**( ٤ ) دعوة**

بالنظرة والصوت
ازن فآبار الزيت
عاهرة حتى الموت

**( ٥ ) جواب**

تسأل ما لون الغد
تسأل ما شكل الغد
أسأل ما لون اليوم
اسأل ما شكل اليوم

**( ٦ ) صرخة**

بأسم النصف الاسفل
بأسم المستقبل
اعطوني تمثال الحرية
اتوارى فيه عن الانظار

**( ٧ ) انتماء**

فوق جسور العالم أمشي عاري القدمين
في الارض المفسولة أمشي
وأغني للخشب الصلب

آخر اشعار الحب
فوق جسور العالم في الارض المفسولة
أتخلص من خوفي
أسقط في البحر

حلب

**خلدون الصبيحي**